المحور الأول: تاريخ الجزائر الثقافي خلال العهد العثماني

درس 04:

عنوان الدرس: بعض مظاهر الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني.

مقـدمـة: نواصل عزيزي الطالب في نفس المحور الأول. ونتناول خلال هذا الدرس:

1\_ انتـشـار حـركة التـأليف

بدأ التدوين التاريخي منذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) بوصفه اتجاها للكتابة التاريخية، وما وجد في القرن التاسع الهجري هو محصلة لإنتاج فترة امتدت طيلة ثلاثة قرون بداية من دولة الموحدين التي كانت قاعدة للإنتاج العلمي إلى عهد العثمانيين بالجزائر.

ومن أسباب انتشار حركة التأليف أو التدوين هي:

\_ سقوط غرناطة عام897هـ/1492م، وما انجر عنه من تحولات سياسية واجتماعية، ليس فقط على مستوى الحوض الغربي للبحر المتوسط بل على العالم الإسلامي عموما

\_ مجيء الأتراك العثمانيين إلى الجزائر وبداية عهد جديد بقيادة البيلربايات.

\_ هجرة العلماء والمؤرخين على وجه الخصوص، من الجزائر وإليها.

وقد عرفت حركة التأليف على يد مجموعة من المؤرخين وفي مقدمتهم "ابن قنفذ" الذي افتتح القرن التاسع الهجري بكتابه "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"، وختمه "التـَنْـسِـي" بكتابه "نظم الدرّ والعقيان في شرف بني زيان".

والمتتبع لحركة التدوين التاريخي يلحظ بأنّ القرون الثلاثة (العاشر، الحادي عشر والثاني عشر الهجري) قد تميّزت بضعف كبير في الإنتاج الفكري والثقافي، لاسيما القرن العاشر الذي عرف نقصا كبيرا في عدد العلماء وفي المؤلفات والمدونات، لذا نجد بعض المؤرخين يطلقون على العهود التي تلت القرن التاسع الهجري بعهود الانحطاط الثقافي والجمود الفكري، ويحمّلون الوجود العثماني في الجزائر تبعات هذا الانحطاط باعتباره لم يؤسّس جامعة مثل القرويين أو الأزهر أو الزيتونة وهذا ما يبررّ هجرة كثير من العلماء الجزائريين.

وفي السياق نفسه، شهدت الجزائر وبقية أجزاء المغرب الإسلامي مع مطلع القرن العاشر الهجري تحوّلات سياسية كبيرة، أدّت بدورها إلى تحوّلات ثقافية وفكرية. ليس غرضنا هو تتبّع المراحل التي مرّ بها هذا التحول السياسي ولكن حسبنا أن نشير إلى أنّ حركة التدوين التاريخي، استمرت بعلماء شابهوا كبار المفكرين والمؤرخين في التأليف منهم "أحمد المقري" و "أبو راس الناصر المعسكري" و "أبو حامد العربي المشرفي".

والجدير بالذكر أنّ الأحداث التي عرفها العالم الإسلامي عامة والجزائر خلال العهد العثماني خاصة، كالتحرشات الصليبية الأوروبية على دول العالم العربي والإسلامي (حملة نابليون على مصر، والصراع الجزائري الإسباني على مدينة وهران)، جعلت مؤرخي القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين يقتصرون في أعمالهم على التواريخ المحلية والتراجم، وظل المؤرخ الجزائري حبيس منطقته الجغرافية، كما اختلط التاريخ بالأدب، وصار معظم الذين يتناولون القضايا التاريخية يعتمدون على شروح القصائد.

ولتوضيح هذا نأخذ مثال للتوضيح عن "أبي راس الناصر"

1\_1\_ طبيعة الكتابة التاريخية عند أبي راس الناصر

لمّا كان التاريخ مهما في حياة الأمم والشعوب، كان من البديهي أن يزداد الاهتمام به وبأساليب التأليف والكتابة وبمناهج الدراسة والبحث فيه، ومن ثمّ تعددت وتنوعت تلك الأساليب والمناهج. لقد أسهم في ذلك كثير من المؤرخين العرب، والمسلمين، ويعتبر الشيخ "أبو راس الناصر المعسكري" واحدا منهم، لأهمية كتاباته التاريخية وإسهاماته في حركة التدوين التاريخي.

ولد "أبو راس محمد بن أحمد بن الناصر الراشدي المعسكري" عام 1150هـ/1737م، بقلعة بني راشد، قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري.

يعدّ مولد أبي راس بمثابة إشعاع علمي ظهر بمعسكر خصوصا وبالجهة الغربية عموما، إن لم نقل للعالم العربي كله، وهو ما دفع بعض الباحثين والمؤرخين يخصصون فصولا عن سيرته الذاتية، مثل "محمد بن عبد الكريم الجزائري"، بالإضافة إلى عدّة أجانب نذكر منهم الجنرال فوربيقي Gabriel-Isidor Faure-Biguet ، والباحث أرنود Arnaud Marc-Antoine.

يعتبر أبو راس شخصية علمية فذة، تثير الاعتزاز لما تمتاز به من دقة وتحريات للتواريخ الهامة، لا سيما فترة التواجد العثماني بالجزائر من جهة، وصراعها مع الإسبان من جهة أخرى. تتلمذ أبو راس مثل غيره من علماء عصره على يد عدة شيوخ كان لهم الفضل الكبير في التأثير في ملكته الفكرية والمعرفية حيث أجيز وأجاز، كما كان لهم دور في بروز هذه الشخصية التي استطاعت بذكائها وكتاباتها التاريخية أن تحظى باهتمام الخلفاء في عصره والمؤرخين والباحثين من بعده.

أهم العلماء الذين تتلمذ على يديهم: والده الشيخ "أحمد بن أحمد بن الناصر"، والشيخ "عبد القادر بن عبد الله المشرفي" الذي كان يدعى بشيخ الجماعة وإمام الراشدية، الشيخ "العربي بن نافلة" الذي أفنى عمره بين تلاوة القرآن ودراسة... وغيرهم من علماء العصر.

أ\_ آثـاره العلـمية:

خلف أبو راس كتبا كثيرة في مجال التاريخ وغيره، بعضها موجود وبعضها مفقود، وقد ذُكر أنّ مجموع تآليفه بلغت نحو 50 كتابا في التفسير والتاريخ والأدب والتراجم والرحلات، وَهناك من قال أنّ ما ألّفه بلغ نحو 63 كتابًا، ونُسب إليه 137 مصنفًا في مختلف الأغراض، بين كبير وصغير، وبين تأليف وشرح وتعليق وتلخيص، منها ما نُشر، ومنها ما زال محفوظا، ومنها ما يُعتبر في حكم المفقود.

توفي العلامة "أبي راس الناصر" يوم الخامس عشر من شعبان من سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف للهجرة 1238هـ/1823م عن عمر ناهز التسعين سنة.

نختم الدرس باستنتاج هام وهو أنّ تاريخ الجزائر الثقافي حافل بعلماء عظماء قدموا الكثير للثقافة الجزائرية.

مـلاحـظة: نواصل في الدرس القادم في نفس المحور.

المحور الأول: تاريخ الجزائر الثقافي خلال العهد العثماني

درس 05:

عنوان الدرس: بعض مظاهر الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني.

مقـدمـة: نواصل عزيزي الطالب في نفس المحور الأول. ونتناول خلال هذا الدرس:

1\_ الثنـائية المذهـبية (المالكي والحنفي)

1\_1\_ المذهب المالكي

يرجع تاريخ وجود المذهب المالكي في الجزائر إلى عهد الدولة الادريسي(172هــ/788م) حيث يعد مؤسسها ادريس الأول من أدخل المذهب المالكي إلى الجزائر. وقد روي أنه قال: نحن أحق باتباع مذهب "الامام مالك" وقراءة كتابه "الموطأ"

وكان علي بن زياد التونسي (توفي183هــ/799م) أول من جاء بكتاب الموطأ إلى افريقيا. ثم انتشر في كامل المغرب الربي على أيدي مجموعة من العلماء منهم "أسد بن الفرات" (توفي 213هـ/828م)، و"محمد سحنون" (توفي240هـ/854م)، وغيرهما ممن أخذ عنهما علماء الجزائر.

وقد استمر المذهب المالكي منذ ذلك الوقت الى يومنا هذا.

وتجدر الاشارة بأنّه لم يكم لدخول العثمانيين إلى الجزائر تأثير في انتشار المدرسة المالكية. رغم أنّ العثمانيين يتبعون المذهب الحنفي.

1\_1\_1\_أشهر أعلام المالكية في الجزائر

من أكثر العلماء المالكيين شهرة ومكانة في العهد العثماني:

أ\_ أحمد البـونـي: هو أحمد بن قاسم بن محمد بن ساسي التميمي البوني أبو العباس، من كبار فقهاء المالكية، عالم بالحديث، ولد ببونة (عنابة) سنة 1063هــ/1653م). وكانت له مكانة عالية بين معاصريه من العلماء والحكام. تتلمذ على يديه العالم "عبد القادر الراشدي القسنطيني".

لقد ساهم الشيخ "أحمد البوني" بقليته المتفتحة على تحرير العقل وفتح باب الاجتهاد في اعطاء نفس جديد للمدرسة المالكية. ولتوضيح ذلك نسوق مثالا عن حادثة طفل توفيت أمه، وألف أباه ألفة عميقة، وعندما طالبت به جدته لأمه وهي الحاضنة الشرعية. أبى وبكى، فأجاب الشيخ بأنّ الأب أحق بالطفل في هذه الحالة. وأضاف على ذلك بأنه ليس لجدة حق أصلا وإن كان المشهور أنّ الحضانة حق لها. وقد استدل لقوله على "الإمام خليل"، كما استدل بالعقل، وبرر "البوني" رأيه الذي أخذه من السابقين بقول القائل:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا \* ويـرى للأوائـل التقدمـا

إن ذاك القـديـم كـــان جـديـدا \* وسيبقى هذا الجديد قديما

وهنا تعبير صريح بأنّ "البوني" رفض الاعتقاد والتشبث بفكرة ما ترك الأول لآخر شيئا، وهذا كله يدل على أنّ روح الاجتهاد والحرية العقلية والتجديد ماتزال حية في المدرسة المالكية.

ألف "أحمد البوني" أكثر من أربعين كتابا أهمها "لغز السبع" الذي كان مرجعا لأهم العلماء.

ب\_ عبد الكريم الفكون: هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون، أصله من قسنطينة، توفي(1073هـ/1663م)

وقد عرف العالم بالاجتهاد ونبذ الجمود والتقليد. وله عدة مؤلفات منها "شرح على مختصر الأخضري في فقه العبادات على مذهب مالك"....

ت\_ خليفة بن أحمد القماري: ولد الشيخ خليفة بن أحمد القماري ببلدة قار ضاحية وادي سوف، واش حياته العلمية متنقلا بين مسقط رأسه وبين بسكرة وسيدي عقبة وخنقة سيدي ناجي.

من كتبه "جواهر الاكليل في نظم مختصر الشيخ خليل" وقد فرغ من تأليفه عندما أصبح طاعنا في السن.

ث\_ محمد بن ميمون الجزائري: هو أبو عبد الله محمد بن ميمون الزواوي النجار الجزائري، ولد بمدينة الجزائر ودرس بها وأخذ العلم عن شيوخها، كانت له ثقافة واسعة، برع في الفقه والفرائض والأدب حتى وصف بالقاضي الأديب.

ولعل التقارب الذي كان قائما بينه وبين الحاكم "محمد بكداش" مكن من دعم حضور المدرسة المالكية في الفتوى والقضاء، وتجسد هذا في توليه منصب القضاء مما مكّنه من الحضور والمشاركة في مجالس العلم والنقاشات التي كانت تجري بين كبار علماء الجزائر في ذلك الوقت بين المدرستين المالكية والحنفية.

وكتب كتابا مفيدا عن الحاكم عنونه بـ"التحفة المرضية في الدولة البكداشية".

نشير في الأخير أنّ المذهب المالكي عرف عدة شخصيات مرموقة مثل: عبدالقادر الراشدي، أُسرة قدوة ممثّلة في أبنائها سعيد ، أحمد ة، علال ومحمد.... وغيرهم من فحول العلماء والفقهاء.

1\_2\_ المـذهب الحنـفي

بالرغم من انتشار المذهب الحنفي في الجزائر بشكل واسع أيام العثمانيين، إلا أنّ هذا لا يعني أبدا بأن العثمانيين هم من كان لهم السبق في إدخال المذهب الحنفي إلى الجزائر، بل إنّ تاريخ ذلك يعود إلى قرون عدة إلى بداية الخلافة الاسلامية، حيث بدأ المذهب ينتشر في شرق الجزائر وتونس على ايدي ممثلي الخلافة ولاة بني الأغلب بداية من سنة 184هــ/800م، وكان أول من أظهر المذهب الحنفي وعمل على نشره هو "أبو محمد عبد الله بن عمر بن فروخ الفارسي".

لقد استمر وجوده إلى جانب المذهب المالكي والمذهب الإباضي إلى حدود القرن الخامس.

1\_2\_1\_أشهر أعلام الحنفية في الجزائر

من أكثر العلماء الحنفيين شهرة ومكانة في العهد العثماني: هم من أسرتي: أسرة "ابن العنابي" وأسرة "ابن علي":

أ\_ حسين بن محمد العنابي: كان عالما واسع المعرفة بعلوم الشريعة، عد في قائمة المفتين الأحناف، سكن الجزائر وولى الفتوى فيها أربع مرات، لقب بشيخ الاسلام. وهو اللقب الذي يطلقه العثمانيون على الفتي الحنفي.

ب\_محمد بن العنابي: هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري المشهور بالعنابي نسبة إلى عنابة، ولد بمدينة الجزائر سنة 1189هـ/1775م، من أوائل المجددين ودعاة الاصلاح الاجتماعي والسياسي في العالم الاسلامي. الفقيه الحنفي القاضي أخذ من كبار فقهاء الحنفية، وقد كانت أسرته مشهود لها بالعلم والفقه. أهم كتبه "السعي المحمود" توفي سنة 1267هـ/1850م.

ويوجد عماء وفقهاء لا يقلون مكانة في الحنفية مثل: محمد بن حسين العنابي، مصطفى العنابي وكذلك باش تارزي وغيرهم... ونجد في أسرة "بن علي" ما يلي:

ت\_ محمد بن علي: هو محمد بن علي بن محمد المهدي بن رمضان بن يوسف العلجة، وهو من العلماء العارفين بالفقه الحنفي. توفي سنة 1128هـ/1716م. أهم كتبه "مجمع الأنهر".

ث\_ ابن علي الابن: هو محمد بن محمد بن علي بن محمد المهدي بن رمضان بن يوسف العلجة المشهور بابن علي، كان يتصف بالحفظ الغزير ورواية الحديث النبوي اضافة إلى مهارة التفسير وتأويل الآيات. تولى وظيفة الفتوى سنة 1150م. وعمل بها لمدة عشرين سنة.

عرف المذهب الحنفي علماء آخرين مثل الحسين بن محمد المازوني وغيره ....

تجدر الاشارة الى وجود مذهب فقهي آخر في الجزائر ألا وهي: المذهب الإباضي الذي انتشر في غرداية وبني ميزاب في الجنوب الجزائري والذي لازال الى يومنا هذا. وأهم اعلامه " عبد العزيز الثميني"

وننوه بأنّ المذهب المالكي هو المعتمد رسميا في الجزائر.

المحور الأول: تاريخ الجزائر الثقافي خلال العهد العثماني

درس 06:

عنوان الدرس: بعض مظاهر الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني.

مقـدمـة: نواصل عزيزي الطالب في نفس المحور الأول. ونتناول خلال هذا الدرس:

1\_ التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني

كان التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني منتشرا في كل القرى والمداشر، وقد اندهش الجنرال "ولسن استر هازي" حيث قال: "إن الجزائريين الذين يحسنون القراءة والكتابة كانوا في ذلك العهد أكثر من الفرنسيين الذين كانوا يقرأون ويكتبون، وأنّ 45 % من الفرنسيين كانوا أميين آنذاك. كما أنّ الجزائر احتلها جنود فرنسيون من طبقة جاهلة كل الجهل.

ولقد حققت الجزائر قفزة نوعية في التعليم خلال العهد العثماني.

1\_1\_ مستوى التعليم:

كان التعليم مقسما إلى قسمين رئيسين وهما: التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي، كما أن التدريس كان عربيا إسلاميا يقوم على أسس دينية وأدبية والقليل من العلوم العلمية:

أ\_ التعليم الابتدائي: وقد كان جد منتشر لا تخلو قرية أو مدينة منه ليصل إلى ألف مدرسة ابتدائية في العاصمة فقط، ولقد كانت المدرسة القرآنية هي من تتكفل بالتكوين الابتدائي، كما أنّ الكتاب كان هو الأساس في العملية التربوية. وعلى العموم كانت هذه الكتب مخصصة لحفظ القرآن وتعليم مبادئ القراءة والكتابة. كما أنّ البعض من هذه الكتب كانت مخصصة لخدمة مذهب أو جماعة معينة، وكانت هذه الكتاتيب مموّنة من طرف الأهالي، الباشوات والموظفين، وفي الأغلب تكون تابعة للزوايا والجوامع .

ب\_ التعليم الثانوي: لم يكن بمفهومنا الحالي، وبعض المساجد كانت تقوم بوظيفة التعليم كاملة، وبعض المساجد الكبرى تخصصت في الدراسات العليا نذكر مثلا: الجامع الكبير بوهران وزاوية القليعة ومليانة وجامع سيدي الأخضر بقسنطينة و سيدي عقبة ببسكرة.

ويجدر الذكر أنّ التعليم كان مجانا بل حتى أنّ الطالب كان يتقاضى منحة مالية إلى جانب السكن والأكل.

2\_2\_ عناصر التعليم: وتتكوّن من: معلمين، تلاميذ وبرامج:

أ\_ المعلّمون: وينقسمون إلى قسمين: معلمو الأرياف ومعلمو المدن، ولكل صنف درجات، ففي المستوى الابتدائي يكون اسمه "المؤدب" وهو الذي يرافق التلميذ حتى سن المراهقة، ثم يأتي "المعلم" الذي سيرافقه حتى سن العشرين، ثم صنف "الأستاذ" أو المعلم في حالة الدراسات الأعلى. أما بالنسبة إلى معايير التوظيف فقد كان المؤدب (وهو المكلّف بالمستوى الابتدائي) يتم تعيينه من طرف الأهالي مباشرة حسب تقواه وضميره الاجتماعي وصلاحه وتمكنه في العلم، ولهذا كان يحق للأهالي طرده في حالة إخلاله بهذه الشروط، كما أنّ الأهالي هم من يتكفلون بأجره على شكل هدايا أو عطايا، أما المعلم والأستاذ فيتم تنصيبهما من طرف الباشا أو من خليفته، ويتلقى أجرا ثابتا.

إلا أنّ المنصب ليس مستقرا، إذ تبقى دائما المعايير الاجتماعية هي من تحكم على المعلم، كما أنّ أجره وتمكنه من المنصب مرتبطان بسمعته وشهرته بين الناس.

ب – التلاميذ: ويقسمون إلى قسمين: من 6 إلى 14 سنة مستوى ابتدائي، فما فوق مستوى ثانوي، كما أنّه لم تكن هناك أي ضوابط لحركة التلاميذ ما عدا دور الأسرة في تكوين أبنائها وكذا سمعة المعلم في التعليم، خاصة أنّه في المرحلة الأولى فقد كان في الاغلب التعليم أمام مقر سكن الأسرة. لكن بالنسبة إلى المستوى الثانوي فالأمر يختلف لأنّ التلميذ سيجبر إلى التنقل إلى المدن وربما حتى الهجرة خارج الوطن، كما كانت الأوقاف تتكفل بالكثير من التلاميذ خاصة مرحلة المستوى الثانوي، ففي قسنطينة مثلا كانت الأوقاف تنفق على 150 طالب من مجموع 700 طالب بمبلغ سنوي قدره 36 فرنكا مع الإقامة في المساجد والمدارس.

ونشير إلى أنّ هذا الأمر ينطبق على الذكور دون الاناث. لأن تدريس الإناث خاصة في المستوى الثانوي منعدم تماما.

ج– البرامج: تتضمن البرامج المدرسية في التعليم الابتدائي الجوانب الدينية من تعليم القرآن، الحديث والتفسير، وكذا دروس في اللغة العربية، الشعر والنحو، وقليل من المواد العلمية مثل الحساب. وكانت عملية التدريس تتم بالشكل التالي: كان المعلم يجلس في وسط القاعة ممسكا في غالب الأحيان بعصا ليحفظ بها النظام ولجذب انتباه التلاميذ، ويقوم بعملية الإملاء بصوت مرتفع، كما كان التلاميذ تحيط بالمعلم على شكل نصف حلقة دائرية، وفي يد كل واحد منهم لوحة خشبية للكتابة، وكان التوقيت يوميا صباحا ومساء، وتعتمد عملية الحفظ على الذاكرة أساسا والكتابة ومحاكاة التلميذ لمن هو أعلى رتبة وسنا.

أما فيما يخص التعليم الثانوي فقد كان البرنامج يخضع لإرادة المعلم فهو الذي يحدد البرنامج ومحتواه ويحدد التوقيت حسب برنامجه الخاص، وتنقسم الدروس إلى دروس نقلية وعقلية فالأولى أي الدروس النقلية تشمل التفسير، الحديث، الفقه وكل ما هو متصل بالقرآن والحديث. أما الدروس العقلية فتشمل اللغة، القواعد، الفلسفة، الحساب، علم الفلك والتاريخ، لكن في كل هذا لم يكن هناك برنامج رسمي موحد إنما الأمر مرتبط باجتهاد المعلم وهو من يحدد الدروس للطلبة على شكل كتب، كما أنّه لم تكن هناك امتحانات فصلية أو سنوية، وكان للطلبة صلاحية اختيار معلميهم حسب شهرة الأستاذ وتوجهه الديني أو العلمي.

2\_3\_المراكز التعليمية:

أ – الكتـاتيب:

وهي المسؤولة على المستوى الابتدائي و كانت تسمى أيضا في المناطق الريفية باسم الشريعة، وفي المدن تسمى بالمْسِيْد، وكان سبب تواجدها هو لتجنيب المساجد ضوضاء الأطفال والحفاظ على نظافته. وتتمثّل مهام هذه الكتاتيب في تحفيظ وتعليم القرآن والحساب، وعدد مريديه من 15 إلى 20 طفل، وتدوم مدة التدريس من 3 إلى 4 سنوات. كما يمكن بقاء التلاميذ ال لأكثر من ذلك لمن أراد حفظ كل القرآن والانتقال إلى المستوى الثانوي

ب – المسـاجد:

وتعتبر من أقدم المؤسسات في الجزائر وأكثرها شرعية وانتشارا، وكما عبر عنها المؤرخ "أبو القاسم سعد الله": "إنها ملتقى العباد ومجمع الأعيان منشط الحياة العلمية والاجتماعية وهي قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة إذ حولا تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب كما أنها كان الرابطة بين أهل القرية والمدينة والحي لأن الكل يشترك في بنائه. وقد كان عدد المساجد كبير فمدينة الجزائر في القرن 19 كانت تحتوي 9 جوامع و50 مسجد كبير (جامع الخطبة) و109 مسجد، أمّا تلمسان فقد كان فيها 50 مسجد للخطبة منها جامع سيدي بومدين والجامع الكبير وجامع محمد السنوسي والكثير من المساجد في كل المناطق. كما أنّ المساجد كانت مقسمة إلى المذهب الحنفي والمذهب المالكي. والملاحظ أنّ مساجد الحنفية كانت أنيقة وجيدة بحكم أنها كانت تابعة للعثمانيين، أما المساجد التابعة للمذهب المالكي فقد كانت متواضعة والتي كانت خاصة بالأهالي.

و كان لكل مسجد أوقاف خاصة به و عدد من الموظفين للإشراف عليه ، فعلى سبيل المثال كان للجامع الكبير بالعاصمة إضافة إلى المفتي والوكيل إمامان للصلوات الخمس ومساعدان للمفتي و19 أستاذ مدرس و18 مؤذن و8 حزابين لقراءة القرآن الكريم و3 وكلاء أوقاف واحد منهم نائب للمفتي الذي هو الوكيل الرئيس والثاني وكيل أوقاف الحزابين و8 منظفين و3 موظفين للسهر على الإضافة، أما خطبة الجمعة والعيدين فيتولاها المفتي نفسه.

ج– الـزوايا:

انتشرت الزوايا في الجزائر بكثرة خاصة في المناطق الريفية لفقرها في بناء مساجد كبيرة ومدارس بالإضافة إلى انتشار التيار الصوفي، والتي عادة ما تكون الزوايا مقرا لها، و قد استطاعت هذه الزوايا الانتشار بقوة لما كانت تجمع بين الوظيفة الدينية والتعليمية.

وإن كانت الزوايا قد انتشرت في الكثير من المناطق إلا أنّ منطقة الزواوة وبجاية أصبحت أشهر المناطق المتواجد فيها حيث تصل إلى 50 زاوية في المنطقة الواحدة، وأهمها زاوية تيزي راشد (زاوية بن اعراب) ومن أشهر علمائها محمد الفريرا المشهور بالذباح والذي تولى ولاية التيطري، وكذا زاوية الشيخ محمد التواتي وهي تعمل على تحفيظ القرآن الكريم ونشر التعليم في المناطق النائية، وكانت ولا زالت مخازن للكتب والمخطوطات كما ساهمت في إزالة الفوارق الاجتماعية وتوطيد العلاقة بين فئات المجتمع وحاربت السلطة المستبدة ، فالزاوية الواحدة تضم الفقير والغني والعالم والأمي، ولكن اعتمادها على المنهج التقليدي أدى إلى الركود الفكري وشيوع الدروشة والانحرافات.

د– الرباطات:

الرابطات هي أين يرابط المجاهدون للدفاع عن الحدود وقد كانت متواجدة بشكل حصري في المناطق الحدودية إلا أنها كانت تقوم بوظيفة التعليم وعابري السبيل مثلها مثل الزوايا وكانت موجهة للجنود الاميين وكذا محاولة نشر الإسلام في مناطق خارج الحدود إلا أنها لم تكن تابعة لطريقة صوفية واحدة بل متفتحة للكثير من الطرق.

و– المدراس:

انتشرت المدارس في كل أحياء ومدن الجزائر باعتراف الفرنسيين ففي كبرى المدن مثل تلمسان اشتهرت منذ العهد الزياني ففي بداية الاستعمار كانت لتلمسان 50 مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم العالي وهما الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام ، أما العاصمة فقد كانت تضم حوالي 229 مدرسة يدرس بها حوالي 5583 تلميذ أهما المدرسة القشاشية التي أشاد بها أبو راس الناصري واعتبرها مركز للتعليم العالي، كما أن قسنطينة ففي عشية الاستعمار كان فيها حوالي 100 مدرسة ابتدائية و7 مدارس ثانوية أشهرها المدرسة الكتانية التي أنشاها صالح باي سنة ، وقد كان الطالب الداخلي يتقاضى 6 ريالات والمدرس 30 ريالا .

كما أنّ المناطق الغربية أسست المدرسة المحمدية لتكون من أكبر المدارس، و تعتبر مدرسة مازونة من أقدم المدارس في العهد العثماني فقد بناها محمد الشريف الأندلسي في القرن 16م.

أما بالنسبة إلى التعليم العالي فلم تعرف الجزائر مؤسسات كبيرة مثل تونس والمغرب إلا أن نوعية الدروس المقدمة من جوامعها الكبيرة كانت تضاهي الزيتونة والقرويين، إلا أنه كان هناك 3 مدارس كبرى تقترب إلى مستوى التعليم العالي وهي مدرسة الأندلسيين ومدرسة شيخ البلاد وكذا الجامع الكبير حيث كانت من أكبر الجوامع والتي تخرج منها اكبر العلماء.

مـلاحـظة: نواصل في الدرس القادم في نفس المحور.

ملاحظة: عزيزي الطالب أرسل لك ما تبقى من الدروس

العلماء ورجال الثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني

1\_ العلماء ورجال الثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني (العلوم الدينية)

لقد كان لعلماء الجزائر في العهد العثماني اسهام كبير في العلوم خاصة الدينية منها وكذا في مجالات الفنون والعلوم رغم أنّ الحكم العثماني لم يكن يهتم بالجانب الثقافي لإيالة الجزائر إلا أنه في نفس الوقت لم يعرقل مجهودات علماء الجزائر لم فتح لهم فضاءات أخرى في المشرق وفي إيالات أخرى و سنحاول التطرق الى ذلك في هذا الدرس:

امتلكت الجزائر في تلك الفترة بالكثير من العلماء ورجال الثقافة باختلاف العلوم والمدارس و مع أن الجانب الديني واللغوي كان هو الأبرز في فروع العلم إلا أن هذا لم يمنع ظهور علماء في مجالات وفروع أخرى سنتطرق إليها

1\_ العلوم اللسانية أو علوم اللغة:

لقد أسهم الجزائريون في ميدان البيان والمعاني ، حيث قام عبد الله بن أبي القاسم الثعالبي بشرح قصيدة الحلي شرحا بلاغيا سماه "أنوار التجلي على ما تضمنته قصيدة الحلي" وقام محمد بن محمد علي الجزائري بشرح الجوهر المكنون سماه "موضع السر المكنون على الجوهر المكنون" كما قد اشتهر علي بن عبد القادر المعروف بابن الأمين بتألفين الأول "رسالة في أما بعد" في حدود 1186 هجري والثاني "حاشية على مختصر السعد". كما نجد في مجال العروض سعيد قدورة شرح لأبي الجيش المغربي لكتابه "الرامزة الشافية في علم العروض والقافية " وقد سماه قدورة " شرح المنظومة الخزرجية" كما يشمل النثر الأدبي المقامات والرسائل الرسمية والإخوانية والوصف والتقارير والتعازي وعقود الزواج والإجازات والشروح الأدبية والقصص والخطب التي تتميز بها الأدب الجزائري .

كما تميزت الثقافة الجزائرية بوجود أعمال حول الشروح الأدبية كشرح الأعمال الصوفية والتاريخية والفقهية و الأعمال الأدبية و من ذلك نجد شرح أحمد بن سحنون الراشدي على قصيدة العقيقة لسعيد المنداسي سماه " الأزهار الشقيقة المتضوعة بعرف العقيقة " .

والملاحظ كذلك هو ندرة النثر الادبي ورغم أن التاريخ الجزائري الثقافي غني بالحكايات والقصص التاريخية إلا أنها كانت أغلبها شفوية لم يدون منها إلا القليل فنجد مثلا محمد بن محرز الوهرامي صاحب المقامات أو المنامات غير أن موضوعاتها كانت كلها شرقية بحكم مقامه هناك ، أما مقامات ابن حمادوش التي جمعها في رحلته فهي ثلاثة و الظاهر أنه كتبها في المغرب الأقصى فالأولى سماها "المقامة الهركلية" في 1156 هجري والثانية ذكر فيه متاعبه في سفره بين تيطوان ومكناس أما الثالثة فقد سماها "بالمقامة الحالية" .

وقد تباينت كتب ومؤلفات الجزائريين في العهد العثماني فمنهم من كتب في الخطابة والرسالة والشعر السياسي والشعر الشعبي لكن كان دائما ما يذوب في طي النسيان أو يذيع صيته في المشرق دون وطنه.

2 – العلوم النقلية والشرعية: ونقصد بها الدراسات الدينية والقراءات ورواية الحديث وفقه العبادات والمعاملات، وقد كثرت هذه الدراسات في العهد العثماني. سنحاول أن نذكر أهم المفكرين والعلماء في بعض التخصصات الفقهية:

2-1- التفسير:

ففيه ناحيتين التدريس والتفسير فأما التفسير فنجد نحمد بن علي بهلول و ابن لؤلؤة التلمساني و أبو راس ناصر وسعيد قدورة وأحمد بن عامر ومع أنه لم نجد لبعضهم وثائق تدل على الطريقة المتبعة في التفسير إلا أن اغلبهم كان يجتمع حولهم طلبتهم فيقومون بالتفسير الشفهي والاملاء للطلبة أما التأليف في التفسير فهو قليل منهم أبو راس ناصر ومحمد الزجاي لكن للأسف لم يترك الكثير منهم مؤلفات مكتوبة إنما اغلبها كانت شفهية و تمت كتابتها من طلابهم و قد اشتهر على الجزائريين تدريس القرآن و لقد كانت منطقة الزوارة من اشهر المناطق حفظا للقرآن لاسيما في القراءات السبع و لعل محمد بن صولة من أشهرهم في تحفيظ القرآن.

2-2- الحديث:

ونجد من الذين برعوا في الحديث عبد الكريم الفكون وابن العنابي وعلي بن الأمين ويحي الشاوي و أحمد المقري وغيرهم كثير حيث ترك احمد المقري عدة تأليفات منها "فتح المتعال في مدح النعال" "أزهار الكمامة في أخبار العمامة ونبذة من ملابس المخصوص بالإسراء والإمامة، وقد شاع في الجزائر حفظ الحديث واسناده وقراءته وإقراؤه، كما ان ممن تركوا مؤلفات في الحديث فنجد محمد بن شقرون ابن احمد الوهراني وكذا احمد البوني واحمد بن عمار والمنور التلمساني الذي كتب "منتخب الاساسين في وصل المصنفات والأجزاء والمسانيد" وهو سلسلة من الإجازات والمرويات التي جمعها عنه تلميذه إبراهيمي السيالة التونسي وغيرهم كثير في مجال الحديث .

بالإضافة الى ذلك فقد ترك علماء الجزائر عدة مؤلفات في الفتوى والوقف والفرائض وغيرها وعلم الفقه ككتاب عبد الرحمن الأخضري الذي وضع نظما "الذرة البيضاء" في خمسمائة بيت من الفرائض والحساب.

2-3- علم الكلام :

وقد شاع بين الجزائريين في ذلك الوقت تعبير علم الكلام وعلم التوحيد على حد سواء وكانوا يعتبرونه من أهم العلوم فوضع الشيخ خليفة بن حسن القماري شرحا كبيرا على الصغرى قسمه إلى خمسة اقسام وجعل لكل قسم جزء، وقام الورتيلاني بتحشية عمل السنوسي، كما وضع السكتاني حاشية على صغرى وشرحاعلى وسطى السنوسي ولمحمد بن الترجمان رسالة في التوحيد سماها "الدر الثمين في تحقيق القول في صفة التكوين".

2-4- التصوف:

كما شمل التأليف في التصوف المواعظ والأذكار والأوراد وغيرها من المواد الصوفية التي اعتنى بها الزهاد المتصوفة ومن اشهرهم احمد بن يوسف الملياني واحمد البوني ويحي الشاوي حيث ألف "النبل الرقيق" ونجد أيضا "أرجوزة" لصاحبها محمد بن عزوز البرجي، وكذا كتاب "رسالة المريد" و"المنظومة الرحمانية " لصاحبها عبد الرحمن باش تارزي.

2\_ العلماء ورجال الثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني (العلوم العقلية)

أهمل علماء الجزائر في العهد العثماني العلوم العقلية رغم أنهم اهتموا بها من قبل إلا أن دخول العثمانيين جعل علماء الجزائر يميلون أكثر الى العلوم الدينية و مع ذلك فقد كانت هناك بعض المحاولات في الكثير من العلوم سنذكر بعضها:

2-1- الحساب:

نجد كتاب " الدرة البيضاء" لعبد الرحمن الاخضري حيث اهتم في كتابه بالحساب، كما نجد ابن حمادوش فقد اهتم بالحساب إلا أنه لم يخصه بالتأليف، إلا أن علي بن عبد القادر الجزائري كتب أرجوزة في الجبر وضعها تقريبا في 13 صفحة حول موضوع الكسور، أما بالنسبة إلى الهندسة فلا يوجد كتاب موثق حوله إلا بعض التلميحات في رحلة ابن حمادوش.

2-2- علم الفلك:

كان هناك اهتمام بارز بعلم الفلك و يظهر ذلك في ارجوزة "النجم المبتز" لصاحبه علي بن أبي الرجال القيرواني، و كذا كتاب " منظومة بغية الكلاب في علم الاسطرلاب" للحباك و قد بقي مؤلفه مرجع متداول لفترات جد طويلة، كما نجد عبد الرحمن الأخضري الذي وضع نظاما سماه ط السراج في علم الفلك "سنة 939 هجري بالإضافة الى عدة مؤلفات في الفلك من بينها: "أثمد البصائر في معرفة حكمة المظاهر" لعبد الله بن عزوز المراكشي وهناك مؤلفات أخرى كثيرة في الفلك.

2-3- الطب:

رغم أن هذا العلم هو علم جامع إلا أن الملاحظ هو عدم الاهتمام به وخاصة عدم تطويره بما يجب ذلك ولربما يرجع ذلك إلى اهتمام الناس بالعلوم النقلية و ايمانهم كثيرا بالقضاء والقدر واتجاه بعضهم الى التداوي بالأعشاب والشعوذة وكتابة الحروز، ومع ذلك فلا يمنع وجود بعض المحاولات والمبادرات الطبية فنجد مثلا: عبد الرزاق بن حمادوش في كتابه " المجوهر المكنون في بحر القانون" والكتاب مرتب على أربعة كتب: السموم والعلاج منها، والثاني في الترياقات والمعاجين والكتاب الثالث في الأمراض والرابع فهو خاص بالأعشاب والأدوية وعلى ما يبدوا فإن ابن حمادوش كانت له يد في الطب والصيدلة. كما نجد ابن عزوز المراكشي ممن اتقنوا فن الطب وعلم الكيمياء والصيدلة.

2-4- علم المنطق:

برز فيه محمد بن يوسف ومحمد بن عبد الكريم المغيلي وكذا ابن حمادوش وسعيد قدورة ونجد كذلك عبد الرحمن الاخضري والذي وضع رجزا في المنطق بلغ مائة وثلاثة وأربعون بيتا بعنوان "السلم المرونق في علم المنطق" ومع ذلك فقد بقي علم المنطق من العلوم المهملة نوعا ما وهذا راجع لعدة أسباب هي: أن الاهتمام بعلم التصوف اكبر من علم المنطق، أن علم المنطق يحتاج إلى معرفة معارف الأوائل وهذا ما لم يكن موجود في المكتبة الجزائرية آنذاك.

2-5- التاريخ:

اقتصر على العموم على التواريخ المحلية والتراجيم والرحلات ولم نجد كتاب واحد يحكي على تاريخ الجزائر العام ، لكن نجد من جهة أخرى مساهمات في تاريخ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فقد ألف احمد بن القاسم البوني قصائد شعر ونثر في وصف ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت كسرد لتاريخه وحياته، أما في التاريخ المحلي فهناك بعض التأليفات من بينها "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبان بوهران من الأعراب ونجد عبد القادر المشرفي الذي تعرض بالتفصيل لقبائل بن عامر مع بيان الحكم الشرعي في تعاونهم مع الاسبان .

والملاحظ أن كل العلوم بما فيها النقلية والعقلية كانت تسير وفق حال الحكم وحال الوضع السياسي والاقتصادي لكل مرحلة فالعلوم الإنسانية تراوحت بين الفصيح والملحون والتأليف لم يخرج من التقليد ماعدا البعض في مجال النحو والصرف أما العلوم النقلية فتميزت بكثرة النقول والشروح والمؤلفات الجدية كالنوازل والفتاوي إلا أن التأليف في التصوف أدى بالعلوم النقلية الى الانحطاط خاصة في مراحله الأخيرة عندما تبادل العلماء الشتم والاتهامات لهذا نجد أن الهجرة كانت طاغية في تلك المرحلة وأن أكبر علماء الجزائر لم ينتشر صيتهم إلا لما هاجروا خاصة الى المشرق.

3\_ علاقة العلماء ورجال الثقافة بالسلطة العثمانية:

تعتبر السلطة السياسية في أي مجتمع وسيلة من وسائل عديدة للضبط الاجتماعي للأفراد، حيث يتعين على هؤلاء عدم الانحراف عما ترسمه السلطة من قوانين ولوائح.

ومحاولة منا تحليل التساؤل التالي: كيف كانت العلاقة بين العلماء ورجال الثقافة مع السلطة العثمانية ؟.

نستطيع أن نستنتج نموذجين اثنين: الأول النموذج الايجابي، والثاني النموذج السلبي.

3-1- النموذج الإيجابي: الانسجام

3-1-1- أسباب الانسجام:

أ\_ الهدف المشترك:

لقد كانت الجزائر على مدى التاريخ، تحارب العدو، وهذا ما تبين من خلال تضافر الأفراد في العملية الجهادية، فإذا تتبعنا مثلا مسار المقاومة التي خاضها الجزائريون ضد الوجود الإسباني نجد أن أول من عارض الاحتلال الإسباني هم العلماء ورجال الثقافة أي النخبة المتجسدة في النسق الديني، وخاصة المرابطين منهم والمشتغلين في الزوايا. وكانت تقوم بهذا الدور الجوهري والفعال باسم الجهاد في سبيل الله ضد التواجد الإسباني. والعثمانيين يرغبون في مجد الجهاد المقدس. أي كان جهاد العدو هدفا مشتركا بين الطرفين.

ب\_ المكانة الاجتماعية للنخبة:

كانت علاقة النخبة بالنسق السياسي العثماني علاقة احترام وتبجيل، وهذا انعكاس لعلاقة العثمانيين في اسطمبول حيث كانت الانكشارية على علاقة وطيدة بالدراويش خاصة المولوية، والبكداشية، حيث اتخذوا من الشخصيات الدينية الفذة رموزا لتحقيق النجاح فمثلا: اتخذ الانكشارية من زعيمها "حاجي بكداش" حاميا ورمزا لهم. وهذا ما دفع بهم إلى تكرار طقوسهم الاعتقادية فلجأوا إلى المرابطين للتبرك، وبلغ بهم الاعتقاد إلى درجة عدم ملاحقة المذنب إذا احتمى بالأولياء أو الأضرحة.

3-1-2- مظـاهر الانسجام:

أ\_ الامتيازات:

بما أن رجال النخبة يشكلون طبقة اجتماعية فاعلة في المجتمع، فقد اهتم بهم الأتراك وقاموا بحمايتهم، ومجاملتهم، وإغرائهم، إرضائهم، استمالتهم وقدموا لهم امتيازات عدة.

ب\_ الاحترام:

لقد أدرك العثمانيون بأن أقرب أفراد المجتمع إليهم هم رجال الدين والتصوف، العلماء ورجال الثقافة فاطمئنوا لهم منذ بداية تواجدهم بالجزائر، وتقربوا منهم وأظهروا لهم احتراما واضحا.

ت\_ منح المناصب:

نظرا للمكانة الاجتماعية التي حظي بها العلماء ورجال الثقافة عند الأتراك فقد منحت لهم مناصب معتبرة، ففي المدن عينوا قضاة وقائمين على المساجد وفي الأرياف أسندت لهم دور الوساطة بين السلطة والمجتمع المدني. ومن أمثلة المهام التي منحها تراك نذكر عائلة "الفكون" وعائلة "آل مقران"

ث\_ جباية الضرائب:

قام الحكام الأتراك بتعيين ذوي النفوذ في المجتمع المدني كجباة للضرائب أو ممثلين رسميين لهم، وهذا قصد استمالتهم وخاصة المرابطين منهم كونهم كانوا معارضين لهم، مثل ما فعل الباي محمد الذباح وحتى يستميل مرابطي "أولاد سيدي علي" ذوي النفوذ الكبير ففوّض لهم مهمة جمع الضرائب.

ج\_ الوساطة:

لقد اكتسى دور الوساطة الذي اسندته السلطة العلماء ورجال الثقافة وخاصة المرابطين أهمية كبرى خصوصا في المناطق البعيدة أو غير الخاضعة لهم كمنطقة القبائل وأين كان التواجد العسكري بها نادرا. هذا أدى إلى تحوّل نفوذهم وسلطتهم الروحية إلى سلطة سياسية ربت السلطة المركزية. ونذكر على سبيل المثال الدور الذي لعبه مرابطوها كوسطاء بين رجال السلطة، والمتمردين سواء من حيث إرشادهم في المنطقة أو كمفاوضين في المسائل الصعبة، وأكبر عائلة مرابطية حظيت بهذا الدور هي عائلة آل مقران التي تمتعت بمكانة مرموقة لدى الأتراك،هذا بالإضافة إلى لجوء السلطة إلى النخبة في الأوقات الصعبة، وأكبر عائلة مرابطية حظيت بهذا الدور هي عائلة آل مقران التي تمتعت بمكانة مرموقة لدى الأتراك.

ح\_ منح الأراضي:

في إطار الامتيازات التي منحت العلماء ورجال الثقافة، وبالخصوص المرابطين بالمناطق الريفية، كان الحكام يمنحون أحيانا الأراضي بدل الأجور والترضيات.

خ\_ المصاهرة:

لقد سمحت المصاهرة بين بعض الأتراك وممثلي الجماعات المحلية النافذة بالريف. خاصة العائلات الكبرى الإقطاعية والمرابطية بظهور روابط وتلاحم بين الطرفين. مثل زواج الداي شعبان من نفيسة بنت العلامة محمد بن عبد المؤمن.

والداي حسين فكان متزوجا بإحدى حفيدات سيدي أحمد بن يوسف الملياني. الذي كان أول من ربط العثمانيون علاقات مباشرة معه، منذ بداية تواجدهم على السواحل الجزائرية.

3-2- النموذج السلبي: التنـافـر

3-2-1- أسباب التنافر:

أ\_ السياسة الضريبية:

إبتداء من القرن الثامن عشر انتهج العثمانيون سياسة ضريبية بسبب تقهقر القرصنة الذي ترتب عنه ضعف في موارد الدولة، وبالتالي في مداخيل الخزينة. و« هذا التغيير كان نتيجة تغير الظروف الدولية وانقلاب مولزين القوى، فقلت الموارد البحرية الجزائرية التي لم تجد مصدرا ثابتا يموّل الخزينة.

وطالب الدايات من البايات بمصادر بديلة، فلم يجد هؤلاء إلا مضاعفة الضرائب.

ومن أمثلة السياسة الجبائية التي طبقتها السلطة:

\_ ضريبة المكوس فرضت ضريبة على التجار وعلى البضائع التي تدخل السوق.

\_ ضريبة الخراج تدفع على الأراضي لغير المسلمين وقد طبقها العثمانيون بالجزائر.

\_ ضريبة الحكور: حق إيجار يدفعه الفلاح مقابل استثماره لأراضي الدولة.

\_ ضريبة العوائد: والتي تقدمها قبائل الرعية مرتين في السنة.

\_ ضريبة الحصة: تقدمها القبائل الرحل.

\_ ضريبة عزلة زوجة الباي: يقدمها أهل التيطري لزوجة الباي...

هذه السياسة الضريبية التعسفية أسفرت عن استياء العامة وتذمرهم، مما أدى إلى وجود ردود أفعال شعبية كالثورات وغيرها.

ب\_ تطور الزاوية:

إن التطور الذي شهدته الطرق الصوفية التي فرضت نفسها على الساحة السياسية والاجتماعية والاقتصادية منذ القرن 18م والقرن 19م على وجه الخصوص كان عاملا من عوامل تأزم العلاقة بين السلطة والعلماء، خاصة بعدما أصبحت مركزا فكريا وقوة روحية لجمع سكان الأرياف. وأمام الأوضاع المتأزمة التي مرت بها الإيالة من مجاعة، أوبئة وتقهقر الاقتصاد، عملت الزوايا على مواجهة الأزمة، واستغل القائمون عليها الظروف، وتنصبوا كحاملي الراية الشرعية الاجتماعية والسياسية. هذا من جهة.

ولكن، ومن جهة أخرى هذا النفوذ الروحي وحتى السياسي الذي اكتسبه المرابطين وشيوخ الزوايا كان مدعما من طرف السلطة العثمانية، وهو ما سمح لهم بتنمية أملاكهم وظهورهم كطبقة أرستقراطية في المجتمع. حرص النظام على استمرارها مدة تزيد عن قرنين ونصف لخدمة مصالحه.

لقد تجلت الحركة الصوفية أواخر العهد العثماني في ثوب جديد حيث كانت تهدف إلى تحقيق تجانس بين القبائل التي انضمت إليها الواحدة تلو الأخرى من أجل التخلص من ثقل البايلك، وقد انضم إليها حتى المرابطون الأحرار وأصبحوا أتباعا لها لا يعملون إلا لصالحها، ولهذا فإن توسع الطريقة الصوفية لم يقتصر على عدد الأتباع بل على مذهبها وتنظيمها، وتكيّفها مع الظروف.

ت\_ علاقة الحكام بالرعية:

لم يمثل الحكم العثماني كيانا متجانسا، فأغلبية السكان كانوا، مهمشين فبعض القبائل لا تربطها بالسلطة سوى دفع الضرائب التعسفية. هذه القبائل التي أطلق عليها اسم "الرعية" طبقت عليها قوانين الحرب الإسلامية التي تقع على بلد غير مسلم بعد فتحه.

وهذا ما يؤكد بأنه لا تربطهم أية صلة أو روابط بالبلد ولا عادات شعبه وهو الشيء الذي دفعهم إلى ارتكاب فضائح وممارسة الظلم والقسوة اتجاه الرعية.

إذ فهدف الدايات كان الاستبداد بالسلطة، وجمع الاموال، وليس الرقي والازدهار الحضاري.

لهذا ارتكزت علاقتهم بالأهالي على أسلوب تسيير استمدوا تنظيماته الموروثة من التنظيمات العثمانية المرتكزة على:

- إقرار الأمن والهدوء والطاعة ولو باستعمال القوة.

- ضمان استخلاص الضرائب ولو بطرق تعسفية.

- الحفاظ على وضع اقتصادي اجتماعي يضمن امتيازات الطبقة الحاكمة ونفوذ المتعاونين معها على حساب غالبية السكان.

لهذا قام الحكام بإبعاد الأفراد عن أي مشاركة سياسية، مما حال دون اندماجهم السياسي وهذا قصد سيطرتهم على المناصب الحكومية وللحفاظ على استقرار الأنساق الاجتماعية.

ث\_الانسحاب الإسباني من وهران عام 1792م:

لقد دخلت الجزائر في الرابطة العثمانية باسم العقيدة الإسلامية. حيث كان الجهاد البحري هو الدافع لوجودهم على شواطئ شمال إفريقيا، وكان الوجود الإسباني بالسواحل خاصة بوهران والمرسى الكبير مصدر التحالف بين العثمانيين والجزائريين. فعاملا الدين والجهاد جعل الجزائريين يقبلون تواجد العثمانيين، ليكون لهما الدور الأكبر في تدعيم فكرة التحالف حيث كانوا في نظر الناس وممثليهم العلماء حماة الدين.

خاصة وأن صراعهم مع الإسبان اتخذ صبغة دينية، هذا الأمر سمح لهم بكسب تأييد ومساعدة العلماء ولفترة طويلة. إذن العلاقة بين الطرفين تميزت بالتحالف، لكن هذا التآزر الذي فرضته المصلحة المشتركة في السنوات الأولى تحول إلى نفور في الفترة الأخيرة، خاصة بعد انحصار الجهاد الذي عرفت على إثره العلاقات تباعدا، وهذا لاختلاف المصالح.

وباسترجاع المدينة فقد التحالف المرابطي – العثماني دعامته الأساسية والمتمثلة في عامل الجهاد ضد الإسبان،

وبانتهاء هذا الخطر أصبح كل طرف ينظر إلى الآخر بعين الحذر والشك ويتحين الفرصة لإقصائه..لأنه وبعد الانسحاب النهائي للإسبان من وهران، وبتقهقر القرصنة لم يعد يشغل بال الحكام سوى ترسيخ وجودهم في داخل البلاد.

ومنه، وبعد استرجاع وهران وتحريرها تغيرت العلاقة التي استمرت إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر لأن المصلحة كانت العامل الرئيس في تحالف الطرفين.

3-2-2- مظـاهر التنافر:

أ\_ القـتل:

وقد كان القتل يعتمد حتى قبل حدوث القطيعة النهائية بين الحكام والعلماء، والتي كانت باسترجاع مدينة وهران، وخير مثال على هذا قتل الداي محمد بكداش للمفتي أحمد بن سيدي قدورة، وكذا المفتي الحنفي محمد بن مصطفى بن المستي فقد صودرت أملاكه وقتل هو الآخر، وهذا دون أن يتوفر سببا وجيها لقتله.

كان الحكام عندما يتخذون قرار قتل أي فقيه أو مرابط، لا تنفع معهم لا توسلات الأهالي ولا تهديدات الأتباع، كما كان حال المرابط سيدي محمد بن أحمد ابن المرابط سيدي إبراهيم الغبريني الذي وبالرغم من توسلات الأهالي وتهديدات أتباعه بالثورة إلا أن قائد شرشال أرسله إلى مدينة الجزائر حيث نفذ فيه حكم الإعدام.

هذا وأحيانا كانت معارضة العلماء للحكام تنتهي بهم في السجن أو القتل وخير مثال على هذا ما حدث للمفتي الحنفي فتح الله، الذي رفض طلب الباي أحمد شاوش القبائلي القاضي بمكاتبة الباشا بمدينة الجزائر، وإعلامه أن اغتصاب هذا الباي للحكم كان بطلب من الأهالي، لكن المفتي رفض طلبه، الأمر الذي تسبب في نفيه إلى عنابة أولا ثم أرسل الباي رجلان فقتلاه في الطريق.

ب\_ العـزل:

لقد كان العزل إحدى الإجراءات التعسفية التي اتخذها الحكام للتخلص من رجال الدين خاصة ذوي الشهرة الكبيرة منهم وكان الداي يعزل العلماء من منصبهم تبعا لرأي أو شكاوي الأهالي أو بسبب فضائح مختلفة. أو عند حدوث نزاع بين العلماء وغالبا ما كان يميل للمفتي الحنفي وأحيانا يعزل الطرفين. وقد تصدرت الوشاية أسباب العزل، مثلما حدث للمفتي سيدي محمد بن سعيد قدورة الذي عزله الداي مصطفى أهشجي عام 1090هـ/ 1706م، بسبب رسالة من حساده للباشا. وكان الحكام غالبا ما يصدقون الوشاية دون البحث والتقصي عن الحقيقة.

ومثلما كانت الوشاية سببا اعتمده الحكام لعزل العلماء كان لاختلافهم حول القضايا الشرعية والتي غالبا ما تنتهي بمشاداة سببا آخر لعزلهم ، حيث يتدخل الباشا للفصل في الأمر وغالبا ما كان ينحاز إلى رأي المفتي الحنفي وخير مثال على ذلك ما حدث سنة 1706م في المجلس العلمي، حيث حدث خلاف بين المفتي المالكي أحمد بن سيدي سعيد قدورة والمفتي الحنفي محمد النيار، حول قضية سكن المرأة التي أساء إليها زوجها، فترافعا إلى الباشا الذي حضر تناظرهما مع العلماء الذين انقسموا إلى فريقين كل فريق يؤيد رأيا، وقد تغلب في النهاية فريق المفتي محمد النيار. وقام الداي بعزل المفتي المالكي أحمد بن سيدي سعيد قديورة.

ولكن في غالب الحيان كان العلماء يعزلون دون أسباب مقنعة لعزلهم.

ت\_مصادرة الأملاك:

كانت عملية المصادرة والمضايقة إحدى الأساليب التي اتبعها الحكام للبطش بالعلماء خاصة أواخر العهد العثماني، حيث نجد منهم من اتخذ من مصادرة الأملاك وسيلة إجرائية تأديبية ضد رجال الدين. فمثلا الداي شعبان كان محبا للمال مهينا للعلماء، حيث أهان علماء قسنطينة، وصادر أملاكهم، كما أنه رفض استقبال وفد العلماء الذي أرسله باي تونس إليه من أجل الصلح، وقد قام الباشا بمصادرة سفينتهم كما أهانهم ومنعهم من الاتصال بالناس.

ث\_ الثورات:

كان بإمكان الحكام العثمانيون التعاون مع السكان وإشراكهم في تسيير شؤون بلدهم، لكنهم انعزلوا عن القاعدة الشعبية واستغنوا عن مساعدتها حفاظا على امتيازاتهم وخوفا من سيطرة القاعدة الشعبية.

فعملوا على وضع وسطاء بينهم وبين الرعية متمثلين في العلماء خاصة منهم شيوخ الزوايا الذين كانوا في بداية الأمر وراء تعبئة الناس للجهاد ضد الخطر المسيحي الذي كان أكبر عامل وطد علاقة العثمانيين

بالعلماء، لكن بزوال هذا الخطر ومع تدهور الظروف الاقتصادية للجزائر تغيرت سياسة الحكام التي وجهت اهتماماتها للمناطق الداخلية من اجل إيجاد مصادر دخل بديلة عن مغانم الجهاد البحري.

لكن، هذا القهر الاجتماعي الذي مارسته السلطة العثمانية وخاصة سياسة الضرائب، قوبل بثورات اجتماعية، والتي كانت أهمها الثورة الدرقاوية والتيجانية.

4\_هجـرة العلماء

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني وخاصة ما بين (1520- 1830) هجرة واسعة لعدد هام من علمائها نحو مناطق عديدة من العالم الإسلامي، وخاصة نحو المغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي، مما شكل نزيفا خطيرا وأثر تأثيرا سلبيا على الحركة العلمية في الجزائر آنذاك. وقد تعددت الأسباب والدوافع التي دفعت بهؤلاء العلماء إلى المغادرة، ومن بينها تراجع الحركة العلمية وتدهور التعليم في تلك المرحلة حسب ما تؤكده بعض المصادر، وهي الظاهرة التي مست معظم العالم الإسلامي، فلا نكاد نصادف خلال هذه المرحلة إلا عددا قليلا من العلماء الذين ذاع صيتهم. ولم يكن هذا غريبا على تلك الفترة، خاصة وأن الأتراك العثمانيين ركزوا كل اهتمامهم على حركة الجهاد البحري وصد هجمات الأوربيين المتتالية على سواحل الجزائر، ولهذا لم يولوا الثقافة الاهتمام الذي تستحقه، فغلب على عهدهم الجمود الفكري والثقافي، وربما كذلك لأنهم كانوا أعاجم لا يتقنون لغة أهل البلد. غير أن هذا لا ينفي أبدا وجود حركة ثقافية ورثتها بعض الحواضر كتلمسان وبجاية ومازونة وقسنطينة عن الفترة السابقة للعهد العثماني، فكان نتاج ذلك أن نبغ عدد هام من العلماء تركوا لنا رصيدا علميا وأدبيا معتبرا، ويضاف إلى ذلك أن بعض الحكام، خاصة الدايات، شجعوا العلم والعلماء، ومن هؤلاء محمد بكداش (1707- 1710)، الذي كان له نصيب وافر من العلم، فقرب إليه العلماء والأدباء الذين أصبحوا من جلسائه، مما أثر إيجابيا على تطور الحركة الأدبية، وأخذ الأدباء يقرضون الشعر ويكتبون النثر في شتى المجالات . ومنهم محمد بن ميمون الجزائري الذي سجل أحداث فتح وهران الأول عام 1708م في قصيدة طويلة سماها" التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية".

في الأخير تجدر الاشارة بأن الجزائر بعد التواجد العثماني خضعت للاستدمار الفرنسي من 1830 إلى 1962 قرابة القرن والنصف حيث عمل الاستدمار الغاشم طمس معالم الثقافة الوطنية فمثلا حول القصور التي شيدت في العهد العثماني إلى قصور يقيم فيها الفرنسيون او نكان للإدارة الفرنسية مثل قصر "خداوج العامية" و قصر "مصطفى باشا" كما حوّل المساجد إلى كنائس مثل "جامع كتشاوة" ونهب وحرق إرث تقافي كبير للعلماء ورجال الثقافة من كتب ومخطوطات وغيرها.

في الأخير أتمنى لكم النجاح والتوفيق